الفروق بين الألفاظ والمصطلحات عند محمد حسين الأعرجي

العلمي حدباوي: أستاذ مساعد أ
كلية الآداب واللغات- جامعة أدرار

تاريخ إرسال المقال: 2018/06/22 **تاريخ قبول المقال:** 06 / 2018/12

ملخص

الفُروق يُراد به التفريق بين دلالات الألفاظ المتقاربة، وقد صُنفت كتبٌ في هذا الموضوع، الذي قد يَرِد بأسماء وعناوين غيرها مثل: الفَرْق، والأشباه والنظائر؛ والفروق التي أعرض لها هنا تنتمي إلى الفروق اللغوية والأدبية عمومًا، وليس عند محمد حسين الأعرجي تأليف مستقل أو مبحث خاص به، بل هي مبثوثة في أعماله، والجهد الذي قمت به هو أنني استخلصتها مما أتيح لي من مؤلفاته، مع التعليق عليها بما ظهر لي في بعض الأحيان.

والفروق التي تجمّعت لي هي: التفريق بين "الشاعر" و"النَظّام"، والتفريق بين "الصراع" و"المعركة الأدبية"، والتفريق بين "الشرطة" و"الحرس"، والتفريق بين "الضرب بالسياط" و"الجلد"، والتفريق بين "التعذيب" و"الاهانة"، والتفريق بين "الحكاية" و"القصة"، والتفريق بين "السخرية" و"الهجاء"، والتفريق بين "النّسب" و"الحسب"، والتفريق بين "الوزن" و"الموسيقى"، والتفريق بين "التذوق" و"الرأي"، والتفريق بين "كتب المرويات" و"كتب الاختيارات"، والتفريق بين "الصعلكة" و"الفقر"، والتفريق بين "الجديد" و"المحدث" و"العصري" و"الحديث"؛ وهدفي من عرض هذه الفروق هو الاستفادة مما فيها من مقارنة وتفريق، لاكتساب ملكة التمييز بين بعض الألفاظ اللغوية والاصطلاحات الأدبية.

الكلمات المفتاحية: الفُروق؛ الأشباه والنظائر؛ محمد حسين الأعرجي.

المؤلف المرسل: العلمي حدباوي، almaoui@hotmail.fr

Abstract: Differences are the distinction between similar words, Some researchers have written books on this subject, which may also be called: "false friends". Mohammed Hussein al-Araji did not write a book or an article on this subject only, But the differences are presented in his writings, The effort I have made is that I have collected it from his works, And also I studied them at times.

The differences I have gathered are: Distinguish between police and guards, And the distinction between beating whip and lashing, The distinction between torture and humiliation, The distinction between the tale and the story, The distinction between the irony and satire; My goal is to benefit from comparisons and distinctions, Between certain linguistic terms and literary terms.

Keywords: Differences, false friends, Mohammed Hussein al-Araji.

1-مقدمة

الفَرْقُ في اللغة: خلاف الجمع، والفرق: الفصل بين الشيئين[1]. والفاء والراء والقاف أُصَيْلٌ صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين[2]. والفَرْق في اصطلاح الدارسين لم يبعد عن المعنى اللغوي إذ يراد به التفريق بين دلالات الألفاظ المتقاربة[3].

وأحيانا يكون تفرد الجانب الصوتي هو ما يجعل الكلمة مفارقة لباقي الكلمات ومتميزة عنها من حيث الدلالة، فيتمّ البحث في المعنى وتمييز الدلالة من منطلق التفرد الصوتي للكلمة، وذلك هو ما ذهب إلى دوسوسير في قوله: (فالذي يهمنا من الكلمة ليس الصوت ذاته إنما هو الفوارق الصوتية التي تمكننا من تمييز هذه الكلمة عن جميع الكلمات الأخرى، وذلك لأن تلك الفوارق هي الحاملة للدلالة)[4].

وقد فصل الدرس اللغوي في فقه اللغة العربية ظاهرةَ الفرْق عن عموم المُغايَرة، ذلك أنه جعلها مسألة لغوية قائمة برأسها، وقد عدَّ فقهاء العربية كل أنماط الفرق قضية دلالية واحدة متشابكة الأجزاء، تشدها روح اللغة العربية، وتجمعها رغبة المتحدثين بها في تجلية المعنى[5].

وقد صُنفت كتبٌ كثيرة فيها اهتمام بهذا الباب من العلم، الذي قد يَرِد بأسماء وعناوين مختلفة هي: الفَرْق، والفُروق، والأشباه والنظائر.

من هذه التأليفات ما هو مخصص بكليّته لها مثل كتاب الفروق للعسكري، ومنها ما خصصَ فقط مبحثا من مباحثه لها، ككتاب المخصص لابن سيده. هذا عن الفروق اللغوية وهي تنتمي إلى معاجم المعاني. وتوجد كتب اختصت بها لكنها في فنون وعلوم غير المعاني اللغوية، مثل النحو، والفقه، ومما ألف في الفقه على سبيل

المثال كتاب الأشباه والنظائر، لجلال الدين السيوطي الذي عرّف الفروق بأنه العلم (الذي يُذكر فيه الفرق بين النظائر المتحدة تصويرًا ومعنًى، المختلفة حُكمًا وعلة) [6].

والفروق التي أعرض لها هنا تنتمي إلى الفروق اللغوية والأدبية عمومًا، وهي ليس لها تأليف مستقل أو مبحث خاص عند الأعرجي، بل هي مبثوثة في مجموع ما ألف، والجهد الذي قمت به هو أنني استخلصتها مما أتيح لي من مؤلفاته، مع التعليق عليها بما ظهر لي في بعض الأحيان.

وهدفي من عرضها هو الاستفادة والاستزادة ممّا فيها من مقارنة وتفريق، لاكتساب ملكة التمييز فيما تعلق ببعض الألفاظ اللغوية والاصطلاحات الأدبية من زاوية نظر فيها من الإضافة والعلمية والإفادة.

وقبل أن أستعرض الفروق التي ذكرها الأعرجي منتثرةً في بعض ما كتب أعرّف بهذا المؤلف تعريفا مختصرا؛ فهو محمد حسين الأعرجي، الأديب والشاعر والمؤلف والمحقق، ولد عام 1949م في النجف بالعراق، وبالنجف نشأ ودرس، ثم كانت دراسته الجامعية والعليا ببغداد، حيث أخذ الماجستير والدكتوراه.

هاجر إلى الجزائر والتحق بجامعة الجزائر المركزية للتدريس في قسم اللغة العربية وآدابها عام 1978، وفيها درس عليه مجموعة من الطلبة هم الآن من كبار أساتذة الجامعة الجزائرية؛ ثم التحق بالتدريس الجامعي في ليبيا عام 1994؛ ثم انتقل إلى دولة بولندا حيث وُظف متعاقدًا مع قسم دراسات آسيا وإفريقيا في جامعة آدم مسكيفج: Adam Mickiewicz في مدينة بوزنان، وكان ذلك في العام الدراسي 1996- 1997. وبقي بها حتى 2004م.

رجع الأعرجي إلى العراق أواخر 2004م، والتحق بكلية الآداب ببغداد، ورأس تحرير مجلة المورد بعد وفاة عناد غزوان. وفي 2008م أصيب بمرض السرطان، وبقي يتداوى إلى أن توفي أواخر كانون الثاني/ ديسمبر 2010م. ترك رحمه الله أكثر من عشرة كتب بين تحقيق وتأليف، ومقالات نشرها في كبريات المجلات[7].

2-الفروق عند الأعرجي

1.2-التفريق بين الشاعر والنّظّام

النّظْم هو التأليف الشعري عامة الذي يلتزم قواعد مُتواضَعًا عليها من حيث الوزنُ خاصة والعروض عامة[8]. أما الشّعر فلا يلتزم تلك القواعد فقط وإنما يزيد عليها ما يجعله يرقى على الكلام العادي، ولذلك فالشعر هو فن من فنون الكلام يوحي

عن طريق الإيقاع الصوتي واستعمال المجاز، بإدراك الحياة والأشياء إدراكًا لا يوحي به النثر الإخباري[9].

وقد فرّق الأعرجي بين النظم والشعر حين اعتبر هذا الأخير ليس مجرد التصريح بالفكرة، واستعراض الغرض، وإنما في طريقة التعبير عنها، وقد عبر عن هذا فقال: (إن الهموم الكبيرة – كما نعرفها جميعًا – لا تصنع وحدَها شعرًا؛ إذ ليس من المهم في الشّعر أن يقول فقط، وإنما الأهم فيه أنْ كيف يقول؟ أي كيف يصوغُ الشاعرُ هذه الهموم فنيًا)[10].

وقد ذهب كاتبنا إلى هذا الرأي ممهدًا لتقديم حكمٍ نقديّ بشأن شعر بَكْر بن عبد العزيز العِجْلي، وللقول إنه لم تكن موهبتُه من المواهب الكبيرة، وفي الوقت نفسه لم تكن من المواهب الضّحلة، وإنه انتفع بشيء من ناحيةٍ وضرّه شيءٌ من ناحية أخرى، أما الذي نفعه فتسبّب في وصول شعره إلينا فهو صِدْقه الآسِر فيما يعالج من مواضيع، وأما الذي أضرَّ به فهو أنه لم يُطل النظر والتأمل في شعره، وأنه لم يجعل الشعر من أولوياته[11].

والفرق بين الشاعر والنظام – كما في كتاب الجواهري دراسة ووثائق - أن الشاعر يركّب البيت برمّته على القافية فتأتي كما لو أنها هكذا خُلقت مستريحة، على حين أن النظّام يُركّب القافية على البيت فتبدو قلقة ناشزة؛ لأنه يكتب البيت وحين يصل إلى القافية فيه يُفكّر أن ماذا ستكون؟[12]. فالشاعر يجعل القافية لبنة أولى يُرفع عليها البناء، لذلك تكون مقبولة غير متكلفة؛ وهذا ما يسميه بعض النقاد اللفظة المتمكنة، أو القافية المتمكنة، يقول الجرجاني: (وهل قالوا: "لفظة متمكنة، ومقبولة"، وفي خلافه: "قلقة، ونابية، ومستكرهة"، إلا وغرضهم أن يعبّروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما)[13].

وهذا التفريق جاء على لسان الجواهري وهو يشرح للأعرجي كيف يميّز الشاعر، وكيف يمتحن شاعريته؛ ومكانة الجواهري وما تميز به من شاعرية وفهم هي في نفس الأعرجي مكانة كبيرة تحظى بالقبول الشديد عنده، ولذلك أوردت هذا التفريق مع تفريقاته. كما أن الأعرجي حمل هذا الفهم نفسه واستحضره في الحكم على الشعر والشعراء، فكان يصف الشاعر المتكلف الذي تظهر على عمله أمارات الاجتهاد العقلي واضحة ويخلو شعره من الشاعرية يصفه بالناظم أو النظّام، فقد وصف شاعرا اسمه عبد الحسين الدارمي بأنه: نظام، ووصف قصيدة له ألقاها في مناسبة ما بأنها: منظومة باردة[14].

بل نجده يفرق في موضعين متجاورين من سياق واحد بين الشعر والنظم، فعندما تحدث عن الشاعر كاظم السوداني قال: (وكان السوداني من أشد المحافظين في قول الشعر وفي نظمه) [15]. ففرقُ – كما يبدو هنا- بين كون هذا الشاعر يقول الشعر وكونه ينظمه.

هذا وقد رأينا حكمه على شعر بكر بن عبد العزيز العجلي، الذي اعتبره شاعرا لم يبلغ الدرجات العليا، وأنه لولا صدقه مع نفسه لكان شعرُه قد ذهب أدراج الرياح.

قام التفريق بين الشاعر والنَظّام على مبدأين مستقلين، قام على مبدأ عام، وفي موضع آخر قام على خطوة عملية إجرائية؛ حينما تكلم عن الشاعر بَكْر بن عبد العزيز قام على مبدأ عام هو وجود الاهتمام وترتيب الشعر في الأولوية، فالشاعر يحل الشعر عنده في أعلى المراتب، أما النظام فلا يهتم بالشعر اهتمام الشعراء به.

كما قام التفريق عنده بين النظام والشاعر على طريقةٍ معينة وإجراءٍ ما، في قول الشاعر فالشاعر يركّب البيت برمّته على القافية، أما النظّام يُركّب القافية على البيت.

2.2-التفريق بين "الصراع" و"المعركة الأدبية"

المعروف أن لفظتَي "صراع" و"معركة" قد تردان في السياق نفسه في العديد من كتب الأدب وكأنهما شيء واحد، لكن التدقيق في استعمال الكلمتين يقتضي التفريق الدلالي بينهما، وممن قد نستشف من كلامهم هذا التفريق إحسان عباس حين تحدث عن: ضروب من الصراع منها المعركة حول الشعر والمنطق[16]، فجعل الصراع ضروبا مختلفة، والمعركة ضربًا واحدًا منها.

وهذا ما نجده عند الأعرجي وهو يتحدث في مقدمة كتابه: "الصراع بين القديم والجديد" بإسهاب عن مصطلح "الصراع" الذي اختاره لبحثه، وأنه آثره على غيره مثل: "المعارك الأدبية" وما هو شبيه بها، لأنه يرى أن الصراع أشمل في الدلالة من سواه، وعلة ذلك أن المعركة الأدبية قد تكون ناجمة عن قضية غير ذات أهمية كبيرة يتنبه لها أديبان فيتطارحان الرأي فيها، ويكون لرأي كل منهما مشايعوه وخصومه، أو لا يكون، كالمعركة التي دارت على كتاب العقاد عن ابن الرومي. على حين أن الصراع يمكن أن يعني – فيما يعنيه – أنه يدور على ظاهرة تلفت نظر أدباء العصر فيرون فيها – مخطئين أو مصيبين – ما يمكنها من تبديل مفهومات تبديلا جذريا، فهو أوسع من أن يدور بين اثنين مختلفين. على أن المعركة الأدبية يمكن أن تكون نواة صراع، إذا اتسعت، وكانت القضية المختصم فيها من الأهمية والسّعة بحيث يجد الآخرون ما يستحق الوقفة الطويلة عندها، كما حدث مع المعركة التي دارت حول شعر المتنبي.

وإذا كانت المعركة الأدبية تُقرر نتيجتُها بانتهاء مدتها الوجيزة، فإن مدة الصراع لا تكون وجيزة، ومنه فإن فريقي الصراع ربما لا يشهدان هذه النتيجة فيقررانها بأنفسهما، بسبب من مشاركة أكثر من جيل واحد فيه.

وإذا كانت المعركة الأدبية – لدى اتساعها شيئا ما – تحتمل التنسيق، فإن الصراع – في الغالب – لا يحتمل ذلك، لأن المصلحة الضيقة التي تدفع إلى التنسيق في المعارك قليلة الأهمية في الصراع.

وإذا كانت المعركة الأدبية مما يُفتعل كذبا – في أحيان – فإن الصراع لا يمكن أن يكون إلا صادقا[17].

فالأعرجي إذن يفرّق بين مصطلح "الصراع" ومصطلح "المعركة الأدبية" في خمس نقاط تقريبًا؛ أولها بكون مصطلح الصراع أشمل في الدلالة من مصطلح المعركة الأدبية ومن سواه.

وأن الصراع يمكن أن يدور على ظاهرة مهمة تلفت نظر أدباء العصر فيرون فيها ما يمكنها من تبديل مفهوماتٍ تبديلا جذريا، أما المعركة الأدبية فقد تكون ناجمة عن قضية غير ذات أهمية كبيرة.

وأن مدة المعركة الأدبية وجيزة ولذلك تُقرر نتيجتُها بانتهاء مدتها، أما مدة الصراع فلا تكون وجيزة، وقد يشارك أكثر من جيل واحد في أتونه.

وإذا كانت المعركة الأدبية قد تحتمل جهدًا تنسيقيًا، فإن الصراع لا يحتمل ذلك غالبًا.

وإذا كانت المعركة الأدبية مما قد يقوم على الافتعال، فإن الصراع لا يمكن أن يكون إلا طبيعيًا غير مصطنع.

3.2-التفريق بين الشرطة والحرس

الشرطة والحرس شيئان مختلفان، وهما بالتعبير الحديث جهازان أمنيان كل واحد منهما له دوره المنوط به. جاء في تاريخ ابن خلدون أن الأمين بعد وفاة أبيه الرشيد بادر إلى فعل أشياء منها أنه : (أقرّ كل واحد على عمله كصاحب الشُرطة والحَرَس والحِجابة) [18]. وذكر المؤرخون أيضا أن أبا العباس المعتضد لما بويع بالخلافة – وكان ذلك سنة 279هـ - ولّى غلامه بدرًا الشرطة، ومحمد بن الشاه بن ميكال الحرس[19].

وعلى هذا الأساس أيضًا فرّق الأعرجي بينهما، وذلك حين تكلم عن زياد بن أبيه ونقل - عن الطبري - أنه أول من اتخذ من الحرس خمسمائة، ثم نبه إلى أن الحرس غير الشرطة، واستدل بتاج العروس الذي جاء فيه أن (الحَرَسِيّ: واحد حرس

السلطان، الذين يُرتّبون لحفظه وحراسته؛ ولا تقل: حارس لأنه قد صار اسمَ جنسٍ فنُسبَ إليه؛ إلا أن يُذهب إلى معنى الحراسة دون الجنس). وشرح قول الزبيدي بأن (الحَرَسي هو من طبقة خاصة، وإن شئت فمن جهاز خاص، ولو كان الحرسي من الشرطة – مثلا – لجاز أن نقول عنه: حارسٌ[20].

4.2-التفريق بين الضرب بالسياط والجلد

ومع أن اللفظين يبدوان شيئا واحدا، إلا أن الأعرجي مولوع بالتدقيق في تمييز الأشياء بعضها عن بعض، وتوضيح الفروق التي بينها، فقد فرق بينهما بأن الضرب يكون وسيلة إلى غاية من نحو الاعتراف أو ما أشبه، على حين أن الجلد غاية في ذاته باعتباره عقوبة شرعية مقنّنة[21].

ذهب الأعرجي إلى أن الضرب بالسياط وسيلته واحدة، أما الجلد فقد يكون بالسوط أو بغيره، ويؤكد هذا – في ظني – أن الفقهاء اشترطوا في إقامة الحدود، اشترطوا السوط في عقوبة الزنا، لكنهم في عقوبة شارب الخمر قرر بعضهم أن يكون بالأيدي والنعال وأطراف الثياب[22]؛ وهذا أنسب، فهو يتعامل مع المعاقَب بما يحقق مقصد التأديب.

فالتفريق بين الضرب بالسياط والجلد ينبني على كونهما يمثلان الوسيلة والغاية على الترتيب: الضرب يكون وسيلة إلى غاية من نحو الاعتراف، على حين أن الجلد غاية في حد ذاته.

كما أن هذا التفريق هو للتمييز بين أداة كل منهما، الأول أداته واحدة هي الضرب بالسياط، أما الثاني فأداته متعددة وهي بأن يكون بالسوط أو بغيره.

5.2-التفريق بين التعذيب والاهانة

لم يقل الكاتب الأعرجي صراحة أنه يفرق بين التعذيب والإهانة، ولكنه وهو يقارن بينهما نفى أن تكون الثانية هي الأولى، فصنع لكل منهما هوية غير هوية الأخرى؛ قال: (وإذا كان الضرب بالدرة عقوبة، فإن الصفع لا يمكن أن يكون إلا إهانة لكرامة الإنسان من حيث هو إنسان)[23]، ومع أن الكلام كان أصلاً في المقارنة بين الضرب بالدرة والصفع، إلا أنها إشارة تبدو لي كافية لاعتبار الكاتب يفرق بين العقوبة المادية والإهانة المعنوية؛ والعقوبة المقصود بها هنا كما هو واضح التعذيب الجسدي؛ والإهانة عنده هي تعذيب نفسي. ومع أن كليهما تعذيب إلا أن المؤلف لا يشك في أن الصفع - لما فيه من الاهانة – أقسى من الضرب من الناحية النفسية[24].

وأظن أستاذنا اقتبس هذا المعنى من الهدي القرآني، يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا) [25]، وفي آيات أخرى جاء: عذاب الهون، وعذاب الخزي، وكلها بمعنى الإهانة؛ فدل على أنه لم يعذبهم وحسب، وإنما شدد في معاقبتهم فعذبهم عذابا فيه إهانة ووضعا لهم.

وتلقفه كذلك من روح الدين الإسلامي وتشريعه في بيان العقوبات والحدود، جاء في الموسوعة الكويتية: (شُرِعَ التأديب للتقويم والإصلاح لا الإهانة والإتلاف واحتقار معاني الآدمية) [26]. والتأديب هنا كما هو واضح المقصود منه العقوبة المادية تعزيرًا.

إن هذا التفريق المُتعرَّض له هو بين طبيعة كل من الإهانة والتعذيب، وبيان درجة كل منهما أيضا، العقوبة طبيعتها أنها تعذيب جسدي مادي؛ والإهانة ذات طبيعة مختلفة لأنها تعذيب نفسي، وهذه الأخيرة هي أشد في الدرجة من سابقتها.

6.2-التفريق بين الحكاية والقصة

بعض الدارسين لا يفرقون بين القصة والحكاية، أو لا يفرقون بينهما تفريقا كبيرا، فهذا علي جواد الطاهر مثلا يرى: أن القصة عمومًا حكاية، والحكاية خصوصًا أن يروي إنسان لآخرين ما رأى أو سمع أو تصور[27]. وأقصى ما يمكن أن يفرق به بينهما هو أن تبقى الحكاية العربية – قصيرة أو طويلة – شعبية فقط، وأنها تزداد عامية على مر الزمن، وأن الأدباء الجادين يزدادون ترفعًا عنها[28].

ومع ذلك فقد فرق الأعرجي بين الحكاية والقصة تفريقًا بيّنا، فالحكاية عنده من المحاكاة أي التقليد، وهي ما يعرف اليوم بالتمثيل[29]، ولم يكن العرب يطلقون على القصة لفظ الحكاية في القرون الأربعة الأولى[30]. أما الألفاظ الدالة على معنى القصة فقد كان كتاب الفهرست لابن النديم، ويرجع تاريخه إلى الجزء الأخير من القرن الرابع يستعمل لفظ: أسمار، وخرافات، وأحاديث، يستعملها بمعنى القَصص المقصود منه التسلية، ولم يستعمل كلمة حكايات في هذا المعنى أبدا[31].

وكان أبو بشر متّى بن يونس القنائي (توفي 328هـ) يستعمل لفظ الحكاية بمعنى التمثيل والمحاكاة، على حين يستعمل الخرافة بمعنى القصة في ترجمته كتاب أرسطو في الشعر[32]. ويتطور مدلول لفظ الحكاية فيصير فيما بعدُ القصة بعد القرن الرابع الهجري[33].

واختلاف النتائج المتوصل إليها من الباحثَيْن بخصوص الحكاية والقصة راجعة فيما يبدو لكون علي جواد الطاهر كان في أثناء كلامه عن القصة مشدودًا دائمًا للمفهوم الغربي للقصة؛ أما الأعرجي فكان لا يلتفت لذلك وإنما كان مهتمًا بمقصود

العرب في العصور السالفة من استعمالهم لهذه الكلمات، مشدودًا إلى التراث يرجع إليه ويؤصّل منه.

إن التفريق بين الحكاية والقصة تاريخيٌّ استعماليّ، فالحكاية في أزمنة مضت هي من المحاكاة أي التقليد، وهي ما يعرف اليوم بالتمثيل، أما الألفاظ الدالة على معنى القصة فهي: أسمار، وخرافات، وأحاديث.

7.2-التفريق بين السخرية والهجاء

يرى كاتبنا أن السخرية غير الهجاء، فالهجاء عنده أقرب إلى الشتيمة، وهو مما يلجأ إليه مجتمع ما زال في طور البداوة؛ أما السخرية فمختلفة تمامًا، فهي عنده من بنات الحضارة، ومن آيات المجتمع المدني[34]. فالهجاء شيء جارح يتعاطاه المتعادون، أما السخرية فيتعاطاها الأصدقاء، ولا يستدر أكثر من الضحك[35]. ويأتي كاتبنا على ذلك بأمثلة، فنقائض الشاعرين جرير والفرزدق وهما شاعران بدويان فيها إسفاف، وطعن في الأعراض. أما ما سوى ذلك من السخرية والضحك فنجدها في شعر الشاعر العباسي الحمدويّ في شاة سعيد، وشعر بشار بن برد في نسب عمرو بن أبي عمرو بن العلاء[36].

وربما فرق الأدباء بين الهجاء والسخرية كما فعل أحمد الشايب حين قال: (ويحسن أن يبرأ الهجو من الفحش والسباب، وأن يخرج مخرج السخرية والتعريض)[37]. فاعتبر السخرية أخف من السباب، فكان قريبًا من مفهوم الأعرجي لهما، غير أن الفرق بين الباحثَيْن كون أحمد الشايب لم ينف أن تكون السخرية من الهجاء، أو درجةً مخففة منه؛ أما الأعرجي فيرى الهجاء طبيعته السباب الجارح، ولذلك فهو عنده مختلف تمامًا عن السخرية.

هذا التفريق بين السخرية والهجاء قائم على أساس المعيار الخلقي لكل منهما، فالهجاء عند الأعرجي أقرب إلى الشتيمة ولذلك لا يصدر إلى من الأعداء في مقابل السخرية المنتمية للدعابة التي لا تجرح؛ ومن جهة ثانية يقوم هذا التفريق أيضا على أساس المعيار الحضاري لكل منهما، فالهجاء يصدر من مجتمع متّسم بالبداوة، أما السخرية فتصدر من مجتمع متسم بالحضارة والمدنية.

8.2-التفريق بين النَّسب والحسب

فرّق العرب بين الحسب والنسب، وعبروا عنهما أيضا بالأصل والفصل؛ جاء في المصباح المنير: (قولهم لا أصل له ولا فصل قال الكسائي: الأصل الحسب والفصل النسب)[38].

وقد توقف الأعرجي عندهما فذكر أن الفرق بينهما – ناسبًا هذا التفريق إلى العلماء – أن النسب تعداد آباء المنتسب، والحسب ما يبتدعه الإنسان من مجد لنفسه

بعيداً عن نسبه، ومن هنا كانت العرب تقول: فلان حسيبٌ غير نسيب، وفلان نسيب غير حسيب.

وذهب إلى أن العرب تفاضل بينهما، فقال إن الحسب أشرف من النسب، فالنسب لا يمنح حسبًا، ولكن الحسب يمنح نسبًا من أشرف الأنساب.

وضرب لذلك أمثلة من السيرة والتاريخ، فأبو جهل وأبو لهب نسيبان غير حسيبين، على حين أن الحسين بن علي نسيب حسيب؛ وسلمان الفارسي بلغ من الرفعة بالحسب بحيث قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: سلمان منا أهل البيت[39].

وهذا المعنى الذي ذهب إليه الأعرجي نجده في معاجم اللغة، جاء في لسان العرب مثلا: ما له حَسَبٌ ولا نَسَب، الحَسَب: الفَعال الصالح، والنسب: الأصل... وقال المتلمس:

ومَن كان ذا نَسْبٍ كريم ولم يكن .. له حسَبٌ كان اللئيمَ المُذمَّما

ففَرَّقَ بين الحسب والنسب، فجعل النسبَ عدد الآباء والأمهات، إلى حيث انتهى. والحسب: الفَعال، مثل الشجاعة والجود، وحسن الخلق والوفاء.[40]

إن هذا التفريق بين النسب والحسب تفريق معجمي، وهو قائم على تمييز الموروث من الذاتية. إن النسب الذي هو تعداد آباء المنتسب متّكئ على إرث الأجداد، أما الحسب فيتّكئ على ما يصنعه الإنسان بذاته ويبتدعه بنفسه من غير اعتماد على الغير.

9.2-التفريق بين الوزن والموسيقى

وجدت الأعرجي يفرق بينهما وهو يتحدث عن رأيه في قصيدة النثر، ومدى ضرورة الوزن للشعر، وجدته هنا يقرر أن العرب الأقدمين وهم ينفون شرط الوزن عن الشعر، لم ينفوا شرط الموسيقى. واستدل على ذلك بما هو موجود في القرآن الكريم – وخاصة في سوره المكية – من موسيقى عذبة راقية، وأن هذه الموسيقى تبلغ من الرقي بحيث تلتبس بأوزان الشعر العربي[41].

ولذلك فإن نازك الملائكة جانبت الصواب في كتابها قضايا الشعر المعاصر حين جعلت الموسيقى ملازمة للشعر دون النثر[42]، الأمر الذي حمل عبد الهادي محبوبة – وهو يقدم لكتابها هذا - على التنبيه إلى أن للنثر الفني موسيقى تأتيه من توازن الجمل وسجعها، ذلك التوازن الذي هو أقرب إلى الوزن في الشعر، وذلك السجع الذي هو أشبه بالقافية فيه[43].

هذا التفريق بين الوزن والموسيقى في جوهر معناه قائم على أساس التمييز بين الوزن في حال انتظامه والوزن في حال عدم انتظامه، والوزن غير المنتظم المقصود به ما يتميز بعدم انضباطه بضوابط الإيقاع الخارجي.

10.2- التفريق بين التذوق والرأي

يستعمل الناقد والقارئ في تقييم النص منطلقات وأدوات منها الذوق، لكن قد يختلط مفهوم الذوق بشيء آخر هو الرأي؛ ونطالع كلام الأعرجي فنجد تفريقا بينهما، فمن خصائص التذوق عنده أنه غير قابل للتعديل، في حين يكون الرأي قابلا للنقاش والتعديل، ويعزو ناقدنا عدم قابلية التذوق للمناقشة شدة حساسيته، ولأنه أمر شخصي جدًّا[44].

وواضح أن أستاذنا يستند في هذا التفريق إلى العبارة المتداولة التي تنص على أن: الأذواق لا تُناقش. ولكن المتأمل سيجد أن هذه العبارة المتداولة لها مقصد خاص، أو أنها قيلت في مناسبة معينة، مما يجعلها غير صحيحة في حالة التعميم، فالذوق ليس شيئا ثابتا، إنما يتطور وينمو مع المطالعة والاختيار والحفظ والفهم والممارسة النقدية، ولذلك يمكن للحكم الذوقي في مرحلة ما أن يختلف عنه بعد مرور زمن يزداد فيه المتذوق ثقافة ومعرفة وتجربة وإدراكًا. فمن كل ذلك يمكن أن تُناقش الأذواق.

إن هذا التفريق بين التذوق والرأي، هو تفريق بين الطبيعة المتغيرة والثابتة لكل منهما، فمن خصائص التذوق عند أستاذنا أنه غير قابل للتعديل لشدة حساسيته ومن هنا كانت طبيعته ثابتة، خلافا للرأي ذي الطبيعة المتغيرة لقبوله التعديل.

11.2- التفريق بين كتب المرويات وكتب الاختيارات

أشار الأعرجي إلى التفريق بينهما وهو يتحدث عن كتاب "مقطعات مراث" لابن الأعرابي، فقد شغله من الأسئلة في أثناء تحقيقه إن كان هذا الكتاب هو كتاب مرويات أم كتاب اختيار، فكان الغالب على ظنه – كما قال – (أنه كتاب اختيار، انتخب فيه ابن الأعرابي أجود ما كان في حافظته من مقطعات في الرثاء)[45].

فكتبُ الاختيارات تتميز عن كتب المرويات إذن بأنها لم تسرد كل المرويات التي تندرج تحت عنوان الكتاب، أو جاءت مناسبة للباب من الكتاب، ولكنها اختارت أجودها، وانتخبت أفضلها. هذا هو المبدأ العام.

وقد أخذ الأعرجي نفسه بمبدأ آخر أيضًا وهو أن يكون كتاب الاختيارات ليس على منهج متفرّد وإلا أخرجه منها، وهذا المبدأ هو الذي جعله وهو يدرس كتاب: "الدر الفريد وبيت القصيد" لمحمد بن أيْدَمر ت710هـ، جعله يصفه بأنه كتاب فريد في التمثّل الشعري، فلم يعتبره كتاب مختارات على الرغم من أنه ضمّ طائفة من عيون الشعر العربي، والعلة التي استند إليها في ذلك هو أن مؤلفه سلك منهجًا في الاختيار لم يُسبق إليه، وهي أنه صنف كتابه على حروف الهجاء، فألزم نفسه أن يذكر البيت

على وَفْق الحرف الذي يبدأ به، من الألف إلى الياء خاتمًا كتابه بالأبيات التي تبدأ بـ "أستغفر الله..." [46].

ومن خصائص هذا الكتاب أيضًا أنه موسوعة شعرية في بابه، وأنه حين يورد البيت الشعري يهتم بنسبة البيت فإن ذُكر أنه يُنسب لأكثر من واحد ذَكَر ذلك وفصّله، وأنه لا يذكر البيت مُفردا بل كان من همّه أن يُثبت – حيثما تسنى له ذلك – أكبر عدد من أبيات القصيدة التي ورد فيها البيت المُستشهد به[47]. ومن خصائصه أيضا أنه ليس كتاب شعر وحده، بل هو مع ذلك فيه من الفوائد التأريخية، واللغوية، والعروضية، ومن أمثال البغداديين ولغتهم المولّدة[48].

ومع هذا الرأي الذي ذهب إليه أستاذنا بشأن هذا الكتاب فإنه في أثناء دراسته له وبعد أن أخرجه من زمرة كتب الاختيارات تراه يتحدث عن قيمته بكلام يُفهم منه أنه لا يُخرجه من زمرتهم، وذلك حين يُقارنه بمجاميع شعرية مثل حماسة أبي تمام وجمهرة الجواهري ليُقرر أن (قيمته من أن كل كتب الاختيارات لا تُغني عنه...) [49]. وهذا رأي مختلف تمامًا عن الأول، ولا أدري وجه اليقين في تردد كاتبنا بين اعتباره هذا الكتابَ منتميًا لكتب الاختيارات وأنه ليس منها، لكن ربما كان ذلك لأن هذه المقالة التي دوّن فيها دراسته عن الكتاب بنيت أول مرة على الرأي الأول، وحين انتهى منها ظهرت له بعض الخصائص المميِّزة فظهر له أن يخلِّص الكتاب من هذا النوع من الكتب، ونسي أن يعدّل ما كان قد بدأ به؛ ومهما يكن من أمر فإنه يمكن أن يُفهم هذا التباين الظاهري على أساس أن هذا الكتاب هو من كتب الاختيارات على وجه العموم، وأنه في الوقت نفسه مختلف عنها بالنظر إلى الخصائص التفصيلية للكتاب.

إن هذا التفريق بين كتب المرويات وكتب الاختيارات بالنسبة للأعرجي قائم على معيار الجزئية بانتقاء الأفضل، فكتبُ الاختيارات اختارت أجود المرويات بخلاف كتب المرويات التي تشمل الفاضل والمفضول؛ هذا زيادة على أن كتب الاختيارات غير قائمة على منهج متفرّد يلتزم بذكر المرويات على وفق نظام معين من الحروف وغيرها.

12.2- التفريق بين الصعلكة والفقر

يفسر لسان العرب الصعلكة بالفقر، جاء فيه: الصعلوك: الفقير الذي لا مال له، والتصعلك: الفقر[50]. أما الأعرجي وهو يعلق على قول بَكْر العِجْلي:

صعلكَ الناسُ بعدما ... قد تركنا التَّصَعلُكا

فإننا نجده ينبّه إلى أن الصّعلكة - في هذا السياق - تعني الفتوّة لا الفقر، يقول: (ينبغي ألا تُفهم الصّعلكة هنا بمعنى الفقر، وإنما هي أقرب إلى معنى الفتوّة، وإن لم تنصّ المعاجم على هذا المعنى) [51].

وأظن أن أحمد أمين له فضل السبق إلى هذا الأمر فقد ألف كتيبًا في الموضوع جمع فيه بين اللفظين وهو بعنوان "الصعلكة والفتوة في الإسلام"، ذكر فيه رابطًا معنويًا بين الصعلكة والفتوة هو أداء كليهما لمعنى إنساني، وفرّق بينهما في المرجعية الاجتماعية لكل ظاهرة، يقول: (رأيت علاقة كبيرة ولو علاقة تناقض بين الفتوة والصعلكة فكلاهما يؤدي معنى إنسانيًا، وإن كان "الفتيان" تدل على أولاد الذوات و"الصعاليك" تدل على أولاد الفقراء) [52].

إن التفريق بين الصعلكة والفقر قائم على فك الارتباط المفاهيمي بين الصّعلكة التي تعني الفتوّة، والفقر، بعد أن كانت الصعلكة هي نفسها الفقر في عرف المعاجم.

13.2- التفريق بين الجديد والمحدث والعصري والحديث

هذه المصطلحات كانت وما تزال عصية على تحديد كل منها والتفريق بينها، ولذلك يُستعمل بعضُها أحيانًا في مكان بعض، ولقد وقف الأعرجي عند هذه الألفاظ وقفة مستعجلة وهو يشرح مفردات عنوان كتابه: "الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي"، وهو في الأصل أطروحته للدكتوراه. ففي هذا السياق ذكر الباحث أن كل مصطلح من تلك المصطلحات له مرحلته الزمنية التي ظهر فيها، (فقد كان مصطلح "المحدث" قبالة "القديم" في العصر العباسي، و"العصري" قبالته في مطلع القرن العشرين، و"الشعر الحر" و"الحديث" لدى نهاية النصف الأول منه) [53].

ذكر هنا هذه الألفاظ الثلاثة: المحدث والعصري والحديث، وذكر العصور التي اختص بها كل تعبير منها، أما مصطلح "الجديد" فهو لا يدل على عصر دون عصر، بل كل العصور، ولذلك اختاره مقابلاً للقديم، قال: (ومن هنا كان له أن يفضل مصطلح "الجديد" مقابلاً لـ "القديم" ليدل على كل ألوانه التي بدا بها في عصور الأدب العربي) [54].

ولا أدري على وجه اليقين لِمَ أغفل كاتبنا مصطلح الحداثة الذي ظهر عندما تلقفته جماعة شعر من سوزان برنار ثم روّجت له هذه الجماعة عبر مقالات روّادها وكتبهم، إلا إذا كان كاتبنا يرى فيه مصطلحًا غريبًا عن الإنتاج العربي الصميم، منطويًا على مضمون غربي، فكان لذلك غير مناسب ليُسلك مع بقية المصطلحات المذكورة.

هذا التفريق بين هذه المصطلحات: الجديد، والمحدث، والعصري، والحديث، هو تفريق قائم على المعيار التاريخي الزمني المرحلي، إذ لكل مصطلح من تلك المصطلحات مرحلته الزمنية التي ظهر فيها، فـ"المحدث" جاء قبالة "القديم" في العصر العباسي، و"العصري" جاء قبالة القديم في مطلع القرن العشرين، و"الشعر الحر" و"الحديث" جاءا

قبالة القديم لدى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، أما الجديد فجاء قبالة القديم من غير أن يرتبط بعصر دون عصر.

خاتمة

في نهاية هذا المقال أخلص إلى مجموعة نتائج أهمها :

كون تفريقات محمد حسين الأعرجي - وهي تفك الارتباط الحاصل بين المتشابهات، وتهيء الأديب والكاتب ليدقق في توظيف الكلمات التي يطالها التشابه – هذه التفريقات مما تتميز به أنها مختلفة نوعيًا فهي تمس المصطلحات الأدبية والنقدية، واللغوية، وأيضا كونها مختلفة زمنيا بين كلمات تراثية قديمة، واستعمالات حديثة ومعاصرة.

هذه التفريقات تقوم على مبادئ هي: العموم والخصوص، والتفريق في درجة القوة، والتفريق بالنسبة للمعيار الخلقي الاجتماعي، والتفريق بالنسبة لمعيار التحضر والمدنية، والتفريق بين كون الشيء قائما على الميراث من الماضي أو الذاتية، والتفريق القائم على تحديد الأفضل، والتفريق بالنظر إلى الانتظام أو عدمه، والتفريق بين الطبيعة المتغيرة والثابتة للأشياء، والتفريق بين الديمومة والآنية، والتفريق بين الصدق والافتعال. والتفريق بين الوسيلة والغاية.

وهي تفريقات في عمومها معنوية، ولا تقوم على التفريق الصوتي في طبيعتها الغالبة، وربما سبب هذا أن الأعرجي لا ينطلق من كونه عالم لغة أو معجميًا، وإنما ينطلق في معظم تفريقاته إلى كونه أديبًا وناقدًا، فهو ينأى بقلمه عن التفريق الذي يعود إلى مرجعية معجمية، وهو أسلوب قليل الظهور في ما يأتي به قلمه، لأن طريقته هي التحرر من الأطر والتحديدات، والنزوع نحو السياقات التعبيرية، والسياقات التاريخية، التي تُوصِل إلى المعاني الأدقّ.

الهوامش

1 - انظر: لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار المعارف، القاهرة، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، 5/ 3397، 3398.

2 - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ، 1979م، 4/ 493.

3 - انظر: الفروق اللغوية في العربية، علي كاظم المشري، دار الصادق، الحلة، العراق، دار صفاء، عمان الأردن، الطبعة الأولى، 2011م، 1432هـ، ص19.

4-دروس في الألسنية العامة، فردينان دي سُوسير، تعريب: صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، الدرا العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1985م، ص180.

5- انظر: الفروق اللغوية في العربية، ص25، 26.

6 - الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ، 1983م، ص7.

7 - انظر: عراقيون في زمن التوهج، ملحق لجريدة المدى، العدد: 2674، الخميس 13 كانون الأول، 2012م، ص2. و:معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2003م، 5/ 256. مع التنبيه إلى الخطأ في تاريخ الولادة الذي جاء في المرجع الأخير، الذي ذكر أنه ولد عام 1366هـ، 1946م.

8- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م، ص414.

9- المرجع نفسه، ص210.

10- ديوان بكر بن عبد العزيز العجلي، تحقيق محمد حسين الأعرجي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م، ص18.

10- المصدر نفسه، ص18، 19.

12 - الجواهري دراسة ووثائق، ص217.

13 - دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، 1/ 45.

14 - انظر: أجداد وأحفاد، ص84، 85.

15 - الجواهري دراسة ووثائق، ص40.

16- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، الإصدار الخامس، 2011م، ص481.

17- انظر: الصراع بين القديم والجديد، ص6، 7.

18- تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر)، عبد الرحمن بن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ، 2000م، 3/ 289.

19- تجارب الأمم وتعاقب الهمم، أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424هـ، 2003م، 4/ 358.

20- جهاز المخابرات، ص28، 29.

21- انظر: المصدر نفسه، ص139.

22- انظر: المغني، موفق الدين ابن قدامة، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، وعبد الفتاح محمد الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثالثة، 1417هـ، 1997م، 12/ 508، 509.

23- جهاز المخابرات، ص142.

24- انظر: المصدر نفسه، ص142.

25- سورة النساء، الآية 102.

26- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، 1409هـ، 1989م، 16/ 326.

27- مقدمة في النقد الأدبي، علي جواد الطاهر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م، ص218.

28- انظر: مقدمة في النقد الأدبي، 236.

29- انظر: فن التمثيل عند العرب، ص25.

30- انظر: المصدر نفسه، ص70.

31- انظر: المصدر نفسه، ص70. نقلا عن: دائرة المعارف الإسلامية (حكاية) بقلم ماكدونالد 8/ 4.

32- انظر: المصدر نفسه، ص71.

33- انظر: المصدر نفسه، ص71.

34- انظر: في الأدب وما إليه، ص14.

35- انظر: المصدر نفسه، ص15.

36- انظر: المصدر نفسه، ص14، 15.

37- الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، 1411هـ، 1991م، ص88.

38- المصباح المنير، أحمد الفيومي، مكتبة لبنان، بيروت، 1987م، ص6.

39- انظر: في الأدب وما إليه، ص136.

40- انظر: لسان العرب، 2/ 864.

41- انظر: في الأدب وما إليه، ص217.

42- انظر: قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ص226.

43- المرجع نفسه (مقدمة الطبعة الأولى) ص352.

44- انظر: في الأدب وما إليه، ص230.

45- مقطعات ومراث، ابن الأعرابي ت231هـ، تحقيق محمد حسين الأعرجي، منشورات مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، عدد2، 1994م، (مقدمة المحقق) ص13.

46- انظر: في الأدب وما إليه، ص273.

47- انظر: المصدر نفسه، ص274.

48- انظر: المصدر نفسه، ص282.

49- المصدر نفسه، ص278.

50- انظر لسان العرب، 4/ 2451، 2451.

51- ديوان بكر بن عبد العزيز العجلي، ص86، الهامش2.
52- الصّعلكة والفتوة في الإسلام، أحمد أمين، دار المعارف، القاهرة، ص6 (مقدمة الكتاب).
53- الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي، ص7، 8.
54- المصدر نفسه، ص8.